138729 ـ ما معنى قولهم : سيئة هذا الرجل تغوص في بحر حسناته ؟

السؤال

ما معنى هذه العبارة : (سيئة هذا الرجل تغوص في بحر حسناته)؟ وهل هي عبارة إرجاء ، وادعاء لعلم الغيب أن حسنات هذا الرجل قد قبلت؟

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

تطلق هذه العبارة وما في معناها على رجل صالح أو عالم زل في مسألة ، أو وقع منه ما لم يحمد عليه ، أو كانت له هفوة حفظت عنه ، فيراد بهذه العبارة الدفاع عنه ، وعدم النيل منه للهفوة أو الزلة ؛ لأنه معروف بالستر والصلاح ، أو بالعلم ، ومحامده المحفوظة أكثر بكثير من مذامه أو أخطائه .

فإنه قد يأتي من يتتبع زلات العلماء ، ويتنقصهم بها ، فيقال له : إن سيئة هذا العالم مغمورة في بحر حسناته .

وهذا كما قال الذهبي رحمه الله في ترجمة شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

" وقد انفرد بفتاوى نيل من عرضه لأجلها ، وهي مغمورة في بحر علمه ، فالله تعالى يسامحه ويرضى عنه ، فما رأيت مثله ، وكل أحد من الأمة فيؤخذ من قوله ويترك فكان ماذا ؟ " انتهى .

"تذكرة الحفاظ" (4/192) .

كما قال عكس ذلك في ترجمة الحجاج الثقفي :

"وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه ، وأمره إلى الله" انتهى .

"سير أعلام النبلاء" (4/ 343) .

وقال ابن القيم رحمه الله :

"الحسنات لما غلبت السيئات ضعف تأثير المغلوب المرجوح ، وصار الحكم للغالب دونه لاستهلاكه في جنبه كما يستهلك يسير النجاسة في الماء الكثير ، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث" انتهى .

"طريق الهجرتين" (ص 563) .

وقال أيضا :

"المصائب لا تستقل بمغفرة الذنوب ، ولا تغفر الذنوب جميعها إلا بالتوبة أو بحسنات تتضاءل وتتلاشى فيها الذنوب ، فهي كالبحر لا يتغير بالجيف" انتهى .

"مدارج السالكين" (1/312) .

وقال أيضا :

"من قواعد الشرع والحكمة أيضا : أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له في الإسلام تأثير ظاهر فإنه يحتمل له مالا يحتمل لغيره ، ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره ؛ فإن المعصية خبث ، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث ، بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى خبث ، ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : (وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم) وهذا هو المانع له صلى الله عليه وسلم من قتل من حس عليه وعلى المسلمين [يعني : تجسس ، ونقل أخباره إلى الأعداء] وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم ، فأخبر صلى الله عليه وسلم أنه شهد بدرا ، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم ، لكن منع من ترتب أثره عليه ما له من المشهد العظيم ، فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات .

وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم : أن من له ألوف من الحسنات فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها ... كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

وقال آخر :

فإن يكن الفعل الذي ساء واحدا فأفعاله اللاتي سررن كثير" انتهى .

"مفتاح دار السعادة" (1/176-177) .

وليست هذه العبارة وأمثالها من الإرجاء في شيء ؛ فإن أصل بدعة الإرجاء في قولهم : إن الإيمان تصديق بالقلب فقط ، وبعضهم يزيد على ذلك الإقرار باللسان ، ولا يشترط له العمل الصالح ، ولا تضره المعصية مهما كانت .

كما أن هذه العبارة وأشباهها ليست من ادعاء الغيب ؛ فإن الناس يشهدون على الرجل بصلاحه أو فساده بما يظهر لهم من

فعله ، وليس هذا من ادعاء علم الغيب ، إنما الغيب فيما له عند الله ، وهل قبلت أعماله أو ردت عليه ؟ وهل هو من أهل الجنة أو من أهل النار ؟ ونحو ذلك .

والمقصود من هذه العبارة أن حسنات الرجل الظاهرة كثيرة ، تستهلك فيها هفوته أو هفواته اليسيرة ، كما تستهلك النجاسة اليسيرة في الماء الكثير ، وليس معناها أن حسناته قد قبلت منه ؛ فإن هذا من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله .

والله أعلم .